ومَثَل هؤلاء الذين طبع الله سبحانه وتعالى على قلوبهم ، مثل الذين كذَّبوا من قبل وكانوا معتدين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ(1) بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

وكل من موسى وهارون - عليهما السلام - رسول ، وقد أخذ البعث لهما مراحل ، والأصل فيها أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [طه]

وقال الحق سبحانه وتعالى لموسى - عليه السلام :

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [طه]

ثم سأل موسى - عليه السلام - ربه سبحانه وتعالى أن يشدَّ عَضُدَه بأخيه ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه]

لأن موسى - عليه السلام - أراد أن يفقه قوله ، وقد رجى موسى ربه سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً(2) مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾ [طه]

---

(1) ملئه : قومه . وقيل : هم أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم الذين يُرجع إلى قولهم . [اللسان ، مادة : ملأ] .

(2) العقدة : تطلق على رتة اللسان وصعوبة النطق ، قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾ [طه] .

وبعد ذلك جاء تكليف هارون بالرسالة مع موسى عليه السلام.

وقال الحق سبحانه: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ[1] (٢٤)﴾ [طه]

فالأصل - إذن - كانت رسالة موسى - عليه السلام - ثم ضم الله سبحانه هارون إلى موسى إجابة لسؤال موسى، والدليل على ذلك أن الآيات كلها المبعوثة فى تلك الرسالة كانت بيد موسى، وحين يكون موسى هو الرسول، وينضم إليه هارون، لا بد - إذن- أن يصبح هارون رسولاً.

ولذلك نجد القرآن معبرًا عن هذا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ .. (٤٧)﴾ [طه]

أى: أنهما رسولان من الله.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الشعراء]

فهما الاثنان مبعوثان فى مهمة واحدة، وليس لكل منهما رسالة منفصلة، بل رسالتهما واحدة لم تتعدد، وإن تعدد المرسل فكانا موسى وهارون.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يوفد ملك أو رئيس وفداً إلى ملك آخر، فيقولون: نحن رسل الملك فلان.

وفى رسالة موسى وهارون نجد الأمر البارز فى إلقاء الآيات كان لموسى. ولكن هارون له أيضاً أصالة رسالية؛ لذلك قال الحق سبحانه:

﴿إِنَّا رَسُولَا .. (٤٧)﴾ [طه]

---

(١) طغى: تجاوز الحد. ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١)﴾ [الفجر] أى: ظلموا وتجاوزوا الحد فى العصيان. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)﴾ [الحاقة].

ذلك أن فرعون كان متعالياً سمْجاً [1] رَذْل [2] الخُلُق ، فإن تكلم هارون ليشد أزر [3] أخيه ، فقد يقول الفرعون: وما دخلك أنت؟

ولكن حين يدخل عليه الاثنان ، ويعلنان أنهما رسولان ، فإن رد فرعون هارون ، فكأنه يرد موسى أيضاً .

أقول ذلك حتى نغلق الباب على من يريد أن يتورك [4] القرآن متسائلاً: ما معنى أن يقول القرآن مرة «رسول» ومرة «رسولا» ؟

وفى هذا ردٌّ كافٍ على هؤلاء المتوركين.

ويقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا ..(٧٥) ﴾ [يونس]

والملأ: هم أشراف القوم ، ووجوهه وأعيانه والمقرَّبون من صاحب السيادة العليا ، ويقال لهم : «ملأ» ؛ لأنهم هم الذين يملأون العيون ، أى: لا ترى العيون غيرهم.

وفرعون - كما نعلم - لم يصبح فرعوناً إلا بالملأ ؛ لأنهم هم الذين نصَّبوه عليهم ، وكان «هامان» مثلاً يدعم فكرة الفرعون ، وكان الكهنة يؤكدون أن الفرعون إله.

(١) سَمُجَ الشيء: قَبُحَ. والسَّمْجُ والسَّميج: الذى لا خير فيه [لسان العرب: مادة (س م ج)- بتصرف].
(٢) الرَّذْل والرَّذيل: الدون من الناس، وقيل: هو الخسيس. وقيل: هو الردىء من كل شىء. [لسان العرب: مادة (ر ذ ل)].
(٣) الأزْر: القوة والشدة ، وأزَرَهُ وآزره: أعانه وساعده . [لسان العرب : مادة (أزر)] .
(٤) التوريك: إضافة الذنب أو النقص إلى الشىء، وحمله عليه على غير الحقيقة ، وتحمل معنى إسقاط عيبه على غيره [انظر: لسان العرب - مادة: ورك] والمراد أنهم يُحمِّلون القرآن تناقضاتهم.

ولكل فرعون ملأ يصنعونه ، والمثل الشعبى فى مصر يقول: «قالوا لفرعون من فَرْعَنك ، قال : لم أجد أحداً يردّنى».

أى: أنه لم يجد أحداً يقول له: تَعقَّلْ . ولو وجد من يقول له ذلك لما تفرعن.

والآيات [1] التى بعث بها الله سبحانه إلى فرعون وملئه مع موسى وهارون من المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون - عليهما السلام ، وفيها ما يُلْفت إلى صدق البلاغ عن الله .

أو أن الآيات هى المنهج الذى يثبت وجود الخالق الأعلى ، لكن فرعون وملأه استكبروا. والاستكبار: هو طلب الكبر ، مثلها مثل «استخرج» أى: طلب الإخراج ، ومثل «استفهم» أى: طلب الفهم. ومن يطلب الكبر إنما يفتعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن مقوماته لا تعطيه هذا الكبر.

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) ﴾ [يونس]

وشرُّ الإجرام هو ما يتعدى إلى النفس ، فقد يكون من المقبول أن يتعدى إجرام الإنسان إلى أعدائه ، أما أن يتعدى الإجرام إلى النفس فهذا أمر لا مندوحة [2] له ، وإجرام فرعون وملئه أودى بهم إلى جهنم خالدين مخلدين فيها ملعونين ، وفى عذاب عظيم ومهين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) ﴾ [الإسراء] والآيات التى أرسل بها موسى عليه السلام هى : العصا ، وإخراج يده بيضاء من غير سوء ، وسنىّ الجدب ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

(٢) المندوحة : اتساع الأمر . والمراد: أن فعلهم هذا لا سبب معقول له ، ولا مبرر . [لسان العرب : مادة (ن د ح) بتصرف].

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ[1] مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

وقد جاءهم الحق على لسان الرسل - عليهم السلام - وعلى كل إنسان أن يفهم أنه حين يستقبل من الرسول رسالة الحق ، فليفهم أنها رسالة ليست ذاتية الفكر من الرسول ، بل قد أرسله بها الله الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

ولذلك فالمتأبِّى[2] على الرسول ، لا يتأبَّى على مساوٍ له ؛ لأن الرسول هو مُبلِّغ عن الله تعالى ، والله سبحانه هو الذى بعثه ، ويجب على الإنسان أن يعرف قدر البلاغ القادم من الله الحق ؛ لأنه سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذى خلق كل شىء بالحق : سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجرى بالحق ، ومطر ينزل بالحق ، وكل شىء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ولو سيطر الإنسان - دون منهج - على قوانين الكائنات لأفسدها ؛ لأن الفساد إنما يتأتى مما للإنسان دخل فيه ، ويدخل إليه بدون منهج الله .

والفساد إنما يجىء من ناحية اختيار الإنسان للبدائل التى لا يخضع فيها لمنهج الله تعالى .

ولذلك إن أردتم أن تستقيم حياتكم استقامة الكائنات العليا التى لا دخل لكم فيها ، فامتثلوا لمنهج الحق وميزانه ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

(١) اللام فى كلمة «لسحر» للتوكيد . والمعنى : أن ما جئت به ما هو إلا سحر قوى ظاهر ، والسحر هو كل أمر يخفى سببه ، ويتخيَّل على غير حقيقته بالتمويه والخداع ، قال تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه].

(٢) التأبى : الرفض والكراهية . [اللسان : مادة (أ ب ى)].

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ⑦ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ[1] ⑧﴾
[الرحمن]

أى: إن كنتم تريدون أن تعتدل أموركم ، وتنضبط انضباط الكائنات الأخرى فلتكن إرادة الاختيار المخلوقة لكم خاضعة لمنهج الله تعالى ، وتسير فى إطار هذا المنهج الربانى.

وحين نتأمل قول الحق سبحانه:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا .. ⑦⑥﴾ [يونس]

نجد فى هذا القول توجيهاً إلى أن الحق لم يأت من ذوات الرسل ؛ فهذه الذوات لا دخل لها فى الموضوع ، وإياك أن تهاجم رسالة حق جاءتك من إنسان لا تحبه ، بل ناقش الحق فى ذاته ، ولا تدخل فى متاهة البحث عمّن جاء بهذا الحق ، وانظر إلى من كفروا بمحمد رسول الله ﷺ، فَهُمْ من قالوا:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ[2] .. ③①﴾ [الزخرف]

وهم بذلك قد أدخلوا النازل عليه القرآن فى الحكم ، مع أن العقل كان يقتضى أن ينظروا إلى القرآن[3] فى ذاته ، وأن يأخذوا الحكمة من أى وعاء خرجت .

وعليك أنت أن تستفيد من هذا الأمر ، وخُذ الحكمة من أى قائل لها ،

(١) لأن اعتدال الموازين ثبات للحق ، وإذا ثبت الحق وأخذ طريقه استقامت موازين الحياة ، وعند استقامتها لا نجد محروماً ولا مظلوماً .

(٢) القريتان هما : مكة والطائف . واختلفت الأقوال فى تحديد هذين الرجلين ، فقيل : إنهما الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى . وقيل : إنهما عمير بن عمرو بن مسعود ، وعتبة بن ربيعة ، وقيل : ابن عبد ياليل . والمقصود أنه رجل كبير من أى البلدتين كان . انظر ابن كثير (٤/ ١٢٧) .

(٣) وقد نقلت لنا كتب السيرة أن الوليد بن المغيرة قال فى وصف القرآن : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته « سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٠) فرغم قوله فى القرآن ومدحه فيه ، إلا أنه مسايرة لقومه ، وحفاظاً على مكانته بينهم جحد القرآن واتهم محمداً ﷺ بالسحر .

ولا تنظر إلى من جاءت الحكمة منه، فإن كنت تكرهه فأنت ترفض أن تأخذ الحكمة منه، وإن كنت تحبه أخذتها. لا، إن عليك أن تأخذ الحكمة ما دامت قد جاءت بالحق؛ لأنك إن لم تأخذها أضعت نفسك[1].

والحق هو الشيء الثابت ، وإن ظهر في بعض الأحيان أن هناك من طمس الحق ، وأن الباطل تغلّب عليه ، فهذا يعني ظهور المفاسد ؛ فيصرخ الناس طالبين الحق.

وانتشار المفاسد هو الذي يجعل الناس تستدعي الحق ، وتتحمس له ؛ لأن الباطل حين يَعَضُّ الناس ، تجدهم يتجهون إلى الحق ليتمسكوا به.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا[2] رَّابِيًا[3] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[4] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ[5] (١٧)﴾ [الرعد]

---

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها ». أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٨٧) وابن ماجه في سننه (٤١٦٩) . قال الترمذي : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإبراهيم بن الفضل ، يُضعَّف في الحديث من قِبَل حفظه .

(٢) الزبد: هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجه . وبحر مُزْبِد، أي: مائج يقذف بالزَّبد . وزبد الماء: طفاوته وقذاه. والجمع: أزباد. [لسان العرب: مادة (ز ب د)].

(٣) رابياً: مرتفعاً؛ لأنه يكون أعلى سطح الماء. [اللسان : مادة (ر ب ى)].

(٤) جفاء السيل: هو ما يقذفه من الزبد والوسخ ونحوهما. [اللسان: مادة (ج ف ى)].

(٥) المثل : الصفة العجيبة يشبَّه بها غيرها . فالأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص ، لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس . وأمثال القرآن قسمان :

- قسم ظاهر مصرح به ، مثل قوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧)﴾ [البقرة]

- قسم كامن ، مثل قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾ [الفرقان] وهو يؤدى معنى مثل « خير الأمور أوساطها ». [انظر : الإتقان في علوم القرآن ٤ / ٤١] .

والحق سبحانه هنا يضرب المثل النازل كسيل من السماء على الجبال ، فيأخذ كل وادٍ أسفل الجبال على قدر احتماله ، ويرتوى الناس ، وترتوى الأرض ، لكنَّ السيل فى أثناء نزوله على الجبال إنما يحمل بعضاً من الطمى ، والقش ، ويستقر الطمى فى أرض الأودية ؛ لتستفيد منه ، أما القش والقاذورات فتطفو على سطح الماء ، وتسمى تلك الأشياء الطافية زَبَداً ، وساعة تضعها فى النار ، فهى تصدر أصواتاً تسمى (الطشطشة) .

ومثال ذلك : حين نوقد النار ؛ لنصهر الحديد ، نجد الخبث هو الذى يطفو ، ويبقى الحديد النقى فى القاع .

هذا الزبد الذى يوجد فوق الماء ينزاح على الجوانب ، ومثال ذلك : ما نراه على شواطىء البحر حين يقذف الموج بقاذورات على الشاطىء ، هذه القاذورات التى ألقتها البواخر ، فيلفظها البحر بالموج ، وهذا الزبد يذهب جُفاءً ، أما ما ينفع الناس فيبقى فى الأرض ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ .. (١٧) ﴾ [الرعد]

إذن : فالله سبحانه يترك للباطل مجالاً ، ولكن لا يسلم له الحق ، بل يترك الباطل ؛ ليحفز غيرة الناس على الحق ، فإن لم يغاروا على الحق غار هو عليه[1] .

وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) ﴾ [يونس]

ولأنهم كانوا مشهورين بالسحر ؛ ظنوا أن الآيات التى جاءت مع موسى - عليه السلام - هى السحر المبين ، أى : السحر الظاهر الواضح .

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٦٠) ، والبخارى فى صحيحه (٤٦٣٤) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وفى هذه الآية ما يوضح رد سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [يونس]

والذين يتوركون على القرآن يقولون : كيف يأتى القرآن ليؤكد أنهم قالوا إن هذا لسحر مبين ، ثم يأتى فى الآية التى بعدها ليقول إنهم قالوا متسائلين : أسحرٌ هذا ؟

وفَهِم هؤلاء الذين يتوركون على القرآن أن كلمة ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ من كلماتهم ، ولكن هذا هو قول موسى عليه السلام ، وكأن موسى عليه السلام قد تساءل ؛ ليعيدوا النظر فى حكمهم : هل ما جاء به سحر ؟ وهذا استفهام استنكارى ، وأريد به أن يؤكد أن هذا ليس بسحر ، ولكن جاء بصيغة التساؤل ؛ لأنه واثق أن الإجابة الأمينة ستقول : إن ما جاء به ليس سحراً.

ولو جاء كلام موسى - عليه السلام - كمجرد خَبَر لكان يحتمل الصدق ، ويحتمل الكذب ، لكنه جاء بصيغة الاستفسار ؛ لأن المكذِّب له سيجيب بلجلجة (١) .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أنت حين تذهب لشراء قماش ، فيقول لك البائع : إنه صوف خالص ونقى ، فتمسك بعود كبريت وتشعل

(١) اللجلجة والتلجلج : التردد فى الكلام ، والاختلاط والاضطراب فيه . ولذلك قيل : « الحق أبلج ، والباطل لجلج » . أى : أن الحق واضح قوى ظاهر ، أما الباطل فهو ضعيف مضطرب لا ثبات له . [لسان العرب : مادة (ل ج ج) - بتصرف] .

النار فى خيط من القماش ، فإن احترق الصوف كما يحترق البلاستيك أو القماش الصناعى ، فأنت تقول للبائع : وهل هذا صوف نقى يا رجل ؟ وهنا لن يجيب البائع إلا بالموافقة ، أو بصمت العاجز عن حجب الحقيقة .

إذن : أنت إن طرحت الأمر باستفهام إنكارى فهذا أبلغ من أن تقوله كخبر مجرد ؛ لأن السامع لك لا بد أن يجيب .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ .. (٧٧) ﴾ [يونس]

يفيد ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمَّن جاء به .

ولذلك لم يقل موسى عليه السلام : أتقولون للحق لما جئناكم به : إنه سحر مبين ؟

إن القول الحكيم الوارد فى الآية الكريمة هو تأكيد على ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمّن جاء به .

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) ﴾ [يونس]

إذن : فسيدنا موسى - عليه السلام - قد أصدر الحكم بأن السحر لا ينفع ، ولكن الآيات التى جاء بها من الحق سبحانه قد أفلحت ، فقد ابتلعت عصاه - التى صارت حية - كل ما ألقوه من حبالهم ؛ وكل ما صنعوه من سحر [١] .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) ﴾ [الأعراف] .

وأراد الحق سبحانه لعصا موسى أن تكون آية معجزة [١] من جنس ما نبغ فيه القوم .

فالله سبحانه حين يرسل معجزةً إلى قوم ؛ يجعلها من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتكون المعجزة تحدياً فى المجال الذى لهم به خبرة ودربة [٢] ودراية ؛ فأنت لن تتحدى رجلاً لا علم له بالهندسة ؛ ليبنى لك عمارة ، ولكنك تتحدى مهندساً أن يبنى لك هرماً ؛ لأن العلوم المعاصرة لم تتوصل إلى بعض ما اكتشفه القدماء ولم يسجلوه فى أوراقهم ، أو لم يعثر على كشف يوضح كيف فرَّغوا الهواء بين كل حجر وآخر فتماسكت الحجارة .

وقول الحق سبحانه وتعالى هنا :

﴿ .. وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [يونس]

يبين لنا أن الفلاح مأخوذ من العملية الحسية التى يقوم بها الفلاح من جهد فى حرث الأرض ووضع البذور ، ورى الأرض وانتظار الثمرة بعد بذل كل ذلك الجهد .

والفلاح أيضاً مأخوذ من فلح الحديد ، أى : شق الحديد ، ككتل أو كقطع ، ولا يصلح إلا إذا أخذ الحديد الشكل المناسب للاستعمال .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [يونس]

هو لَفْتٌ لنا أن السحر نوع من التخييل ، وليس حقيقةً واقعةً .

ولذلك قال الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن :

---

(١) المعجزة هى : الأمر الخارق للعادة يُجريها الله على يد النبى أو الرسول تأييداً له وتصديقاً لرسالته ، كمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام انقلاب العصا حية وانفلاق البحر وإبراء الأكمه والأبرص . وخصَّ ﷺ بمعجزة القرآن الخالدة ، وله ﷺ معجزات حسية كنبوع الماء من بين يديه ﷺ .

(٢) دربة : عادة وخبرة أو تدريب .

﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [الأعراف]

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿ .. فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه]

إذن : فالسحر هو تخييل فقط [١] وليس تغييراً للحقيقة .

ولأن معجزة موسى - عليه السلام - تحدَّت كل القدرات [٢] ؛ لذلك أعلن فرعون التعبئة العامة بين كل من له علاقة بالسحر ، الذى هم متفوقون فيه ، أو حتى من لهم شبهة معرفة بالسحر [٣] .

ولأن السحر مجرد تخييل ، وجدنا السحرة حين اجتمعوا وألقوا حبالهم وعصيهم ، ثم ألقى موسى عصاه ، فإذا بعصاه قد تحولت إلى حية تلقف [٤] ما صنعوا ، وهنا ماذا فعل السحرة ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة طه :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ [طه]

لأن الساحر يرى ما يفعله على حقيقته ، وهم خيَّلوا لأعين الناس ، لكنهم يرون حبالهم مجرد حبال أو عصيهم مجرد عصى .

---

(١) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التخييل والأخذ بالعيون ، ومبناه على أن البصر قد يخطىء ويشتغل بالشىء المعين دون غيره ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [الأعراف] . وقال تعالى : ﴿ .. يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه] .

(٢) السحر : هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخيل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إعجاز وتغيير ماهية الشىء بقدرته سبحانه ؛ ولذلك انتصر موسى - عليه السلام - على السحرة ؛ لأن الله سبحانه أعانه عليهم بقدرته التى لا راد لها .

(٣) وذلك أن فرعون من مكره جعل الملأ من حوله هم الذين يصعّدون المواجهة مع موسى بأن قال لهم : ﴿ .. إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) ﴾ [الشعراء] . فكان ردّهم عليه أن قالوا له : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾ [الشعراء] .

(٤) اللقف : سرعة الأخذ والتناول . [اللسان : مادة (ل ق ف)] .

أما عصا موسى - عليه السلام - فلم تكن تخييلاً ، بل وجدها السحرة حية حقيقية ، ولقفت بالفعل ما صنعوا ؛ ولذلك خرُّوا [1] ساجدين ، وأعلنوا الإيمان برب موسى وهارون .

هم - إذن - لم يعلنوا الإيمان بموسى وهارون ، بل أعلنوا الإيمان :

﴿ بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ..(٧٠) ﴾ [طه]

لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحراً ، بل هو مِنْ فعل خالق أعلى .

وكان ثبات موسى - عليه السلام - في تلك اللحظة نابعاً من التدريب الذي تلقَّاه من ربه ، فقد سأله الحق سبحانه :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ [2] عَلَيْهَا وَأَهُشُّ [3] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ..(١٨) ﴾ [طه]

وقد أجمل موسى وفصَّل في الرد على الحق سبحانه ؛ إيناساً وإطالة للأنس بالله تعالى ، وحين رأى أنه أطال الإيناس أوجز وقال بأدب :

﴿ ..وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ [4] أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه]

إذن : فقد أدركته أولاً شهوة الأنس بالله تعالى ، وأدرك ثانياً أدب التخاطب مع الله تعالى ، ودرَّبه الحق سبحانه على مسألة العصا حين أمره

(١) خر : سقط ووقع . والمراد أنهم أسرعوا بالسجود لله رب العالمين .
(٢) أتوكأ عليها : أتحمل وأعتمد وأستند عليها . [اللسان : مادة (و ك أ) - بتصرف] .
(٣) ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ..(١٨) ﴾ [طه] أي : أهز بها الشجر لتتساقط أوراقه لترعاه غنمي . نقله ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٤٥) .
(٤) مآرب أخرى : أي : مصالح وحاجات ومنافع أخرى غير ذلك .

أولاً أن يلقيها ، فصارت أمامه حية تسعى ، ولو كانت من جنس السحر لما أوجس [١] منها خيفة ولرآها مجرد عصا .

إذن : فالفرق بين معجزة موسى وسحرة فرعون، أن سحرة فرعون سحروا أعين الناس وخُيِّل إلى الناس من سحرهم أن عصيَّهم وحبالهم تسعى ، لكن معجزة موسى - عليه السلام - في إلقاء العصا، عرفوا هم بالتجربة أن تلك العصا قد تغيرت حقيقتها .

والعصا -كما نعلم -أصلها فرع من شجرة،وكان باستطاعة الحق سبحانه وتعالى أن يجعلها تتحول إلى شجرة مثمرة ، لكنها كانت ستظل نباتاً.

وشاء الحق سبحانه أن ينقلها إلى المرتبة الأعلى من النبات ؛ وهى المرحلة الحيوانية ، فصارت حية تلقف كل ما ألقاه السحرة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا [٢] عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا [٣] ٱلْكِبْرِيَآءُ [٤] فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

---

(١) أوجس : أى: وقع فى نفسه وقلبه الخوف والفزع . [انظر اللسان مادة وجس] وقد وقع هذا الخوف لاثنين من الأنبياء ذكرهما القرآن : الأول إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة فى صورة بشر ليبشروه بإسحاق ويعقوب ، وقد ذكر هذا فى القرآن مرتين: الأولى في سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ [هود] . أما الثانية ففى سورة الذاريات آية ٢٨ .

أما النبى الثانى فهو موسى عليه السلام: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه] .

(٢) لتلفتنا : لتثنينا وتبعدنا عن آلهة الآباء والأجداد .

(٣) لكما : أى : لموسى وهارون عليهما السلام .

(٤) الكبرياء : العظمة والرياسة . [ابن كثير ٢/ ٤٢٦] .

وهنا نجد سحرة فرعون ينسبون مجيء معجزة تحول العصا إلى حية ، ينسبونها لموسى - عليه السلام - رغم أن موسى عليه السلام قد نسب مجيء المعجزة إلى الله تعالى .

وكان واجب المرسل إليه - فرعون وملئه - أن ينظر إلى ما جاء به الرسول ، لا إلى شخصية الرسول [1] .

ولو قال فرعون لموسى : « جيءَ بك» لكان معنى ذلك أن فرعون يعلن الإيمان بأن هناك إلهاً أعلى ، ولكن فرعون لم يؤمن لحظتها ؛ لذلك جاء قوله : ﴿أجئتنا﴾ فنسب المجيء على لسان فرعون لموسى عليه السلام .

ولماذا المجيء ؟

يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (٧٨) ﴾ [يونس]

والالتفات هو تحويل الوجه عن شيء مواجه له ، وما دام الإنسان بصدد شيء ؛ فكل نظره واتجاهه يكون إليه ، وكان قوم فرعون على فساد وضلال ، وليس أمامهم إلا ذلك الفساد وذلك الضلال .

وجاء موسى عليه السلام ؛ ليصرف وجوههم عن ذلك الفساد والضلال ، فقالوا :

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (٧٨) ﴾ [يونس]

---

(١) فمما قاله فرعون عن موسى يطعن في شخصيته ما حكاه رب العزة في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) ﴾ [الزخرف] وذلك أن موسى كان لسانه لا ينطلق بالكلام ، وقد عبر عن ذلك في دعائه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) ﴾ [طه] .

وهكذا يكشفون حقيقة موقفهم ، فقد كانوا يقلدون آباءهم ، والتقليد يريح المقلِّد ، فلا يُعْمِل عقله أو فكره فى شىء ليقتنع به ، ويبنى عليه سلوكه[(١)] .

والمثل العامى يصور هذا الموقف بعمق شديد حين يقول : « مثل الأطرش فى الزفة » أى : أن فاقد السمع لا يسمع ما يقال من أى جمهرة ، بل يسير مع الناس حيث تسير ، ولا يعرف له اتجاهاً .

والمقلِّد إنما يعطل فكره ، ولا يختار بين البدائل ، ولا يميز الصواب ليفعله ، ولا يعرف الخطأ فيتجنَّبه .

وفرعون وملؤه كانوا على ضلال ، هو نفس ضلال الآباء ، والضلال لا يكلف الإنسان تعب التفكير ومشقة الاختيار ، بل قد يحقق شهوات عاجلة .

أما تمييز الصواب من الخطأ واتباع منهج السماء ، فهو يحجب الشهوة ، ويلزم الإنسان بعدم الانفلات عكس الضلال الذى يطيل أمد[(٢)] الشهوة .

إذن : فالمقلد بين حالتين :

الحالة الأولى: أنه لا يُعْمِل عقله ، بل يفعل مثل من سبقوه ، أو مثل من يحيا بينهم .

---

(١) وهذا التقليد نهى عنه رسول الله ﷺ فى حديثه ، فعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسنَّا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٠٠٧) وقال : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٢) أمد الشهوة : غايتها . والأمد : منتهى الأجل . وقد وردت هذه اللفظة ثلاث مرات فى القرآن ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) ﴾ [الجن] أى : زماناً بعيداً . وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا .. (٣٠) ﴾ [آل عمران] أى : فى غاية البعد . وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) ﴾ [الكهف] أى : مدة وزماناً .

والحالة الثانية: أنه رأى أن ما يفعله الناس لا يلزمه بتكليف ، ولكن الرسول الذى يأتى إنما يلزمه بمنهج ، فلا يكسب - على سبيل المثال - إلا من حلال ، ولا يفعل منكراً ، ولا يذم أحداً ، وهكذا يقيد المنهج حركته ، لكن إن اتبع حركة آبائه الضالين ، فالحركة تتسع ناحية الشهوات.

ولذلك أقول دائماً: إن مسألة التقليد هذه يجب أن تلفت إلى قانون التربية ، فالنشء ما دام لم يصل إلى البلوغ فأنت تلاحظ أنه بلا ذاتية ويقلد الآباء ، لكن فور أن تتكون له ذاتية يبدأ فى التمرد ، وقد يقول للآباء: أنتم لكم تقاليد قديمة لا تصلح لهذا الزمان ، لكن إن تشرَّب النشء القيم الدينية الصحيحة ؛ فسيمتثل لقانون الحق ، ويحجز نفسه عن الشهوات.

ونحن نجد أبناء الأسر التى لا تتبع منهج الله فى تربية الأبناء وهم يعانون من أبنائهم حين يتسلط عليهم أقران [1] السوء ، فيتجهون إلى ما يوسع دائرة الشهوات من إدمان وغير ذلك من المفاسد .

لكن أبناء الأسر الملتزمة يراعون منهج الله تعالى ؛ فلا يقلدون أحداً من أهل السوء ؛ لأن ضمير الواحد منهم قد عرف التمييز بين الخطأ والصواب.

ثم إن تقليد الآباء قد يجعل الأبناء مجرد نسخ مكررة من آبائهم ، أما تدريب وتربية الأبناء على إعمال العقل فى كل الأمور ، فهذه هى التنشئة التى تتطور بها المجتمعات إلى الأفضل إن اتبع الآباء منهج الله تعالى ، وتتكون ذاتية الابن على ضوء منهج الحق سبحانه ، فلا يتمرد الابن متجهاً إلى الشر ، بل قد يتمرد إلى تطوير الصالح ليزيده صلاحاً.

التقليد - إذن - يحتاج إلى بحث دقيق ؛ لأن الإنسان الذى سوف تقلده ، لن يكون مسئولاً عنك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل:

---

(١) أقران : جمع قرن (بكسر القاف وتسكين الراء) وهو النظير والمثيل . والمراد بأقران السوء : أصدقاء السوء ورفقاء الشر والرذائل . [لسان العرب : مادة (ق ر ن) - بتصرف] .

﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. (٣٣) ﴾ [لقمان]

إذن: فأمر الابن يجب أن يكون نابعاً من ذاته ، وكذلك أمر الأب ، وعلى كل إنسان أن يُعْمِل عقله بين البدائل[1] .

ولذلك تجد القرآن الكريم يقول على ألسنة مَنْ قلَّدوا الآباء:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا[2] عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة]

ثم يرد عليهم الحق سبحانه:

﴿ ..أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

فإذا كانت المسألة مسألة تقليد ، فلماذا يتعلم الابن ؟ ولماذا لا ينام الأبناء على الأرض ولا يشترون أسرَّة ؟ ولماذا ينجذبون إلى التطور فى الأشياء والأدوات التى تسهِّل الحياة ؟

فالتقليد هو إلغاء العقل والفكر ، وفى إلغائهما إلغاء التطور والتقدم نحو الأفضل .

إذن : فالقرآن يحثنا على أن نستخدم العقل ؛ لنختار بين البدائل ، وإذا كان المنهج قد جاء من السماء ، فَلْتهْتَد بما جاء لك ممن هو فوقك ، وهذا الاهتداء المختار هو السمو نحو الحياة الفاضلة .

---

(١) البدائل : ما يصلح لأن يختار منه الإنسان ، فهى مواضع الاختيار فى التكليف ، فله أن يختار بين الإيمان والكفر ، الطاعة والمعصية ، قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾ [الشمس] .

(٢) ألفينا : وجدنا . ألفى الشىء وجده . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) ﴾ [الصافات] ، وقال : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ..(٢٥) ﴾ [يوسف] أى : وجداه .

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا (١) مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٠٤) ﴾ [المائدة]

أى: أنهم أعلنوا أنهم فى غير حاجة للمنهج السماوى فَردَّ عليهم القرآن:

﴿ ..أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

وهكذا نجد أن القرآن قد جاء بموقفين فى آيتين مختلفتين عن المقلّدين:

الآية الأولى: هى التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى:

﴿ .. بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

والآية الثانية: هى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ..حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

وهم فى هذه الآية أعلنوا الاكتفاء بما كان عليه آباؤهم.

وهناك فارق بين الآيتين، فالعاقل غير من لا يعلم؛ لأن العاقل قادر على الاستنباط، ولكن من لا يعلم فهو يأخذ من استنباط غيره.

---

(١) حسبنا: يكفينا. وهناك فارق بين قولة الكافرين المقلدين لآبائهم هنا، وبين قول المؤمنين لهذه الكلمة: ﴿ حَسْبُنَا ﴾، فالمؤمنون قالوا: ﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]، وقالوا: ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ..(٥٩) ﴾ [التوبة]، فالمؤمنون اكتفوا بما جاءهم عن الله وأوكلوا الأمر إلى الله رغم معاداة الآباء لهم ورغم أن موقفهم هذا سيضرهم فى دنياهم وقد يقطع أرزاقهم، فهم قد نظروا إلى الآخرة، أما الكافرون فإنهم يعيشون دنياهم بكل ما فيها من ملذات وشهوات.

إذن: فالذين اكتفوا بما عند آبائهم ، وقالوا:

﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..(١٠٤)﴾ [المائدة]

هؤلاء هم الذين غالوا فى الاعتزاز بما كان عند آبائهم ؛ لذلك جاء فى آبائهم القول بأنهم لا يعلمون .

أى : ليس لهم فكر ولا علم على الإطلاق ، بل يعيشون فى ظلمات من الجهل.

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه:

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ .. (٧٨)﴾ [يونس]

أى: هل جئت لتصرفنا ، وتحوّل وجوهنا أو وجهتنا أو طريقنا وتأخذنا عن وجهة آبائنا الذين نقلدهم؛ لتأخذ أنت وأخوك الكبرياء فى الأرض؟

وهكذا يتضح أنهم يعتقدون أن الكبرياء الذى لهم فى الأرض قد تحقق لهم بتقليدهم آباءهم ، وهم يحبون الحفاظ عليه ، والأمر هنا يشمل نقطتين:

الأولى: هى تَرْكُ ما وجدوا عليه الآباء.

والثانية: هى الكبرياء [1] والعظمة فى الأرض.

ومثال ذلك: حين يقول مقاتل لآخر: « ارْمِ سيفك » وهى تختلف عن قوله: «هات سيفك »، فَرَمْيُ السيف تجريد منَ القوة ، لكن أخذ السيف يعنى إضافة سيف آخر إلى ما يملكه المقاتل الذى أمر بذلك.

---

(١) الكبرياء : العظمة والملك . وهى عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ، ولا يوصف بها إلا الله تعالى . قال صاحب « القاموس القويم» : هى العظمة والتجبّر والسلطان والسيطرة ، وهى فى حق الله سبحانه العظمة الحق ، والسلطان القوى ، والسيطرة الكاملة » بتصرف .

وهم هنا وجدوا فى دعوة موسى عليه السلام مصيبة مركبة.

الأولى: هى ترك عقيدة الآباء.

والثانية: هى سلب الكبرياء، أى: السلطة الزمنية والجاه والسيادة والعظمة والائتمار [1]، والمصالح المقضية، فكل واحد من بطانة [2] الفرعون يأخذ حظه حسب اقترابه من الفرعون.

ولذلك أعلنوا عدم الإيمان، وقالوا ما يُنهى به الحق سبحانه الآية الكريمة التى نحن بصددها:

﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) ﴾ [يونس]

أى: أن قوم فرعون والملأ أقرُّوا بما حرصوا عليه من مكاسب الدنيا والكبرياء فيها، ورفضوا الإيمان بما جاء به موسى وهارون- عليهما السلام.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) ﴾

وكان فرعون يعلم تقدُّم السحرة فى دولته، ويكفى أنه شخصياً خَيَّل للناس أنه إله، وجاء أمره أن يأتى أعوانه بالسحرة، وفور أن قال الأمر جىء بالسحرة.

وأورد الحق سبحانه فى الآية التى بعد ذلك:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) ﴾

---

(١) الائتمار: التشاور فى الأمر والتواصى به. ويسمى التشاور ائتماراً لأن المتشاورين يقبل بعضهم أمر بعض. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ .. (٢٠) ﴾ [القصص]. [القاموس القويم. وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٣].

(٢) بطانة الرجل: خاصته. [لسان العرب: مادة (ب ط ن)].